نحن واللغة العربية

— ٤ —

اللغة العربية في العصر الحاضر : ب . [في العراق]

للأستاذ مصطفى الشهابي

لم يكن حظ العربية في العراق أيام الدولة العثمانية بأجود من حظها في الشام . فقد كان العراق يومئذ ولايات عثمانية، لغة الحكومة ، ومدارس الحكومة فيها هي التركية . ولم يكن في ذلك القطر العربي مدارس للارساليات الدينية ولا مدارس أهلية كافية ، ولهذا كان دون مصر والشام من حيث انتشار العلوم العصرية والأخذ بوسائل المدنية الحديثة . وكان معظم المتعلمين من أبنائه يدرسون في مدارس الدولة العسكرية فيسيحون ضباطاً في الجيش العثماني . وقليل منهم درسوا الحقوق أو الادارة في مدرسة اسطنبول الملكية . أما الأطباء والصيادلة والأساتذة في مختلف العلوم ورجال العلم من محققين وكتاب وأدباء وشعراء فقد كان عددهم قليلاً .

ولكن الله لم يرد للغة القرآن شراً في العراق فقيض لها معقلاً في النجف هو عند الشيعة كالأزهر عند السنة . وهو مركز مهم لمدارسة اللغة العربية وتدريسها هذا العلوم الدينية . وعلى الرغم من الانحطاط العام الذي شمل البلاد العثمانية في ذلك العهد فقد نبغ في العراق أفراد في الشعر والأدب كالكاظمي أعظم من ارتجل الشعر البليغ ارتجالاً في هذا العصر . وقد كنا نكذب الكتب القديمة القائلة بأن بعض الشعراء الأقدمين كانوا يرتجلون القصيدة الطويلة حتى سمع الكاظمي يرتجل في مناسبات مفاجئة شتى فاذا بموهبة الارتجال حقيقة لا شك فيها .

ومن الشعراء المشهورين الشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي ، ومنهم معروف الرصافي بذّ الجميع في أوائل هذا العصر وسكت في أواخر أيامه . ومنهم الشبيبي رئيس نادي العلم له شعر متين الحرك في ديوان طبع حديثاً . ولعل أشهر الشعراء العراقيين عند الشاميين هو أحمد الصافي النجفي نزيل دمشق فان في شعره حيوية وشاعرية ورقة ودعابة .

واشتهرت الأسرة الآلوسية في العراق بعلوم الدين واللغة والأدب . ومن أشهر

علمائها في القرن الماضي محمود بن عبد الله الآلوسي له مصنفات كثيرة وابداع في الانشاء ، ومنهم في القرن الحاضر محمود شكري بن عبد الله الآلوسي ومن أشهر مصنفاته المطروحة « بلوغ الارب في احوال العرب » حقق في تأليفه رغبة لجنة اللغات الشرقية في استكهولم وفاز بجائزتها . وله مصنفات أخرى كثيرة .

ومهما يكن من أمر هذه الجهود الفردية ، فان ظهور عدد كبير أو قليل من الأدباء والعلماء والمفكرين لا يدل على انه كان يوجد نهضة ثقافية في العراق ، في القرن الماضي وفي أوائل القرن الحاضر والحقيقة أن النهضة الحديثة في هذا القطر الشقيق لم تبدأ إلا بعد خروج الأتراك العثمانيين منه عقب الحرب الكبرى الماضية . وأبو هذه النهضة المباركة وباعثها ومزجيها فيصل بن الحسين طيّب الله ثراه .

فقد كان في بغداد أيام الدولة العثمانية مدرسة حقوق فتحت في أواخر أيام تلك الدولة ، ومدرسة إعدادية ومدرسة عسكرية متوسطة وبضع مدارس ابتدائية . وكان في كل من ولايتي البصرة والموصل مدرسة اعدادية وعدد صغير من المدارس الابتدائية . وجميع هذه المدارس الحكومية كانت تدرس بالتركية . وكان التعليم فيها موجهاً الى اعداد ناشئة تتقن التركية ، وتدين بالجامعة العثمانية ، وتخدم إما في الجيش العثماني وإما في وظائف الحكومة الثانوية . وكانت اللغة العربية لغة ثانوية تدرس بالتركية ، كما كانت القومية العربية تحارب من قبل المعلمين الأتراك والمتتركين .

ويتضح من ذلك أن العراق عندما انفصل عن الدولة العثمانية بعد الحرب الكبرى الماضية وبدأ يمارس استقلاله ، وجد نفسه في حاجة قصوى الى نشر التعليم على أنواعه ، وإلى توجيهه وجهة القومية العربية الصحيحة ، والى إعزاز اللسان العربي لسان الشعب والدين والدولة ولم يقصر القائمون على شؤون العراق في هذه النواحي الثلاث . ففتحوا حتى سنة ١٩٣٥ من المدارس الابتدائية ٧٤٧ مدرسة كان مجموع تلامذتها ٨٦٠٠٠ وكانوا ٩٠٠٠٠ في سنة ١٩٣٧ أما في سنة ١٩٤١ فقد اربوا على مائة ألف تلميذ وتلميذة . وفتحوا ٤٧ مدرسة متوسطة تحتوي على الصفوف الأولى من الدراسة الثانوية ، و١٤ مدرسة ثانوية تشتمل على الصفوف العليا من الدراسة الثانوية . وبلغ مجموع التلامذة في هذين الفرعين من مدارس التجهيز عشرة آلاف تلميذ . ووجهوا عنايتهم الى إعداد معلمين ومعلمات للمدارس الابتدائية ففتحوا لهذا الغرض أربع دور معلمين منها اثنتان للذكور واثنتان للاناث ، وكان فيها سنة ١٩٣٥ ألف تلميذ وتلميذة . أما في سنة ١٩٤١ فقد ارتفع المعلمين في الرستمية وحدها كان فيها نحو ألف تلميذ .

وأسسوا للتعليم العالي دار معلمين عليا تخرج أساتذة المدارس المتوسطة ، وكلية

للطب والصيدلة وكلية للحقوق. أما المدارس الفنية فقد أسسوا منها بضع مدارس للفنون الحربية على مختلف أنواعها، ومدرسة للهندسة ومدرسة زراعية ومدرسة صناعية في بغداد وأخرى في الموصل الخ ... ولم يأنف العراق من استدعاء أساتذة مصريين وشاميين وبريطانيين للتدريس في مدارسه، وهذا ما يفعله كل شعب ناهض في بدء نهضته وسيستغني عنهم رويداً رويداً بازدياد المتخرجين من دور المعلمين العراقية، وبازدياد العراقيين الذين يتخرجون في كل سنة من جامعات ديار الشام وديار الغرب

والعربية هي لغة التعليم في مدارس الحكومة العراقية عدا مدرستي الطب والهندسة، فان معظم الدروس فيها تلقى بالانكليزية. ولا أرى لذلك سبباً جوهرياً.

ولا تزيد المدارس الأهلية في العراق على سبعين مدرسة فيها نحو عشرين ألف تلميذ. أما المدارس الأجنبية فهي اثنتا عشرة مدرسة تضم ألف تلميذ. ويدل ذلك على ان الدولة في العراق هي التي تسيطر في مدارسها العديدة على تعليم الأحداث وعلى تربيتهم وعلى توجيههم وجهة واحدة. وهذه الوجهة تستهدف الاحتفاظ بتراث العرب الأدبي والروحي، واقتباس المفيد من علوم الغربيين وأساليبهم العلمية ووسائلهم المادية. أما المبادىء القومية فهي تبث في جميع مدارس الدولة على شكل يدعو الى الارتياح.

ومع ان ميزانية وزارة المعارف في العراق تكاد تبلغ ثمانمائة ألف دينار وهو مبلغ لا يستهان به في قطر لا يزيد سكانه على نيف وأربعة ملايين نسمة، فما برح أمام الحكومة مجال واسع لنشر التعليم الابتدائي خاصة، لأن تلامذة المدارس الابتدائية وتلميذاتها لا يبلغون جميعاً ربع الأولاد الذين هم في سن التحصيل الابتدائي. وثلاثة ارباع الأحداث أو أكثر يلبثون أميين والحكومة جادة لتقليل عدد الأميين، وهو عمل يحتاج الى كثير من المال والى مرور زمن كاف لتخريج عدد كبير من الشبان الذين ينهون دراستهم في دور المعلمين ويتصرفون الى تعليم الأحداث.

ويلخص من هذه النبذة عن التعليم في العراق أن لساننا الضادي في هذا القطر الشقيق أصبح له المقام الأول في مدارس الدولة، وانه صار يدرس فيها تدريساً حسناً، كما صارت تؤلف به كتب مدرسية كثيرة في العلوم المختلفة. وقد لاحظت أثناء رحلتي الى العراق في أواخر سنة ١٩٤٠ ان لغة دواوين الحكومة لا بأس بها، وأنها ليست بأسوأ من لغة دواوين مصر والشام إجمالاً.

ومما يثلج الصدر أن اللجنة التي كانت ألفت في دمشق بعد الحرب الكبرى الماضية لوضع مصطلحات عربية في الفنون الحربية، لم يذهب عملها هدراً، بل داوم العراقيون على هذا العمل (وكان واسطة عقدهم فيه الأديب السيد عبد المسيح وزير حتى صار عندهم

معجم لتلك المصطلحات يشتمل على بضعة آلاف لفظة . وهكذا سهل تعليم الجيش العراقي بالعربية سواء في المدارس العسكرية المختلفة أم في الثكنات .

ولم يكن في العراق أيام الدولة العثمانية صحافة تذكر . أما اليوم ففي العراق جرائد ومجلات عديدة ، تقدمت كثيراً عن قبل بلغتها ، وبموضوعاتها الأدبية والعلمية . ومن المجلات الراقية التي اطلعنا عليها مجلة « المعلم الجديد » تصدرها وزارة المعارف ، ومجلة « التعالم الاسلامي » تصدرها جمعية الشبان المسلمين . أما الصحف اليومية في بغداد فليست دون صحف دمشق أو بيروت . ويلاحظ الانسان أن في العراق كما في الشام إقبالاً على اتخاذ الصحافة مهنة سهلة . ولهذا صار يصدر في بغداد وحدها عشر صحف يومية أو أكثر وهو عدد كبير إذا قيس بعدد القراء في العاصمة وفي الأطراف . وقد تأسس في بغداد ناد يسمونه نادي القلم أعضاؤه لفيف من الكتّاب والأدباء والأساتيذ واللغويين . وهم يجتمعون من حين إلى آخر ، ويتذاكرون في الأدب واللغة ، ويلقي أحدهم عليهم محاضرة عن موضوع داخل في نطاق اختصاصه . وهذا النادي يمثل ناحية بارزة من نواحي الثقافة العامة في العراق .

أما المصطلحات العلمية ففي العراق أفراد قليلون يعنون بها . وأشهرهم الأب أنستاس ماري الكرملي ، كان يصدر في بغداد مجلة لغوية مفيدة اسمها « لغة العرب » ومما يدعو الى الأسف انه اضطر الى حجبها عن الناس لأسباب مالية . وكانت هذه المجلة تتضمن نقداً لاغلاط الكتاب والمؤلفين ، ومجلة صالحة من الألفاظ العربية في بعض العلوم والمخترعات الحديثة . ولبث الأب العلامة يكتب في مجلة مجمعنا العلمي العربي وفي بعض المجلات المصرية على ما نعلم . وله معجم كبير مخطوط سماه المساعد .

واشتهر في العراق الدكتور مصطفى جواد أحد أساتذة دار المعلمين العليا بنقد اغلاط الكتّاب ، كما اشتهر الدكتور داود الجلبي بألفاظ العلوم الطبية . ويعد الدكتور أمين باشا المعلوف اللبناني المنشأ والعراقي التابعية أفضل علماء العرب في مصطلحات الحيوان في أيام الناس هذه . وله معجمان مطبوعان وهما معجم الحيوان ومعجم اسماء النجوم .

والعراق أول من سن تشريعاً بأن تكتب لوحات المتاجر باللغة العربية فوق أي لغة أجنبية أخرى وهو أول من لبى دعوة حكومة مصر الى عقد مؤتمرات لتوحيد الثقافة في الأقطار العربية .

ويتضح من هذه الكلمة الموجزة أن نهضة العراق التي بدأت عقب الحرب الكبرى الماضية وتناولت جميع نواحي الحياة العامة من تعليم وعمران واقتصاد واستقاء ورياضة وغيرها ، قد شملت لغة الضاد أيضاً فأخذت تتقدم وتزدهر في دواوين الحكومة ومدارسها وفي النوادي الأدبية والصحافة الحرة ، وما برح أمام العراق مجال واسع لبث الثقافة العامة . ولكن هذا القطر العربي عرف الطريق الصاعدة فسلكها وكل من سار على الدرب وصل .